المحاضرة رقم 02: الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830.

أولا: الوضع السياسي في الجزائر قبيل الاحتلال (1800-1830).

كان الجانب السياسي للجزائر في العهد العثماني موضوع بحث الكثير من الباحثين الذين أجمعوا على تقسيم الفترة الممتدة من 1519 إلى 1830 إلى أربع فترات تاريخية، آخرها فترة حكم الدايات من 1671 إلى 1830، تميزت هذه الفترة بطول مدتها، حيث عرفت الجزائر فيها مقومات سياسية، وتمتعت بالاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية، وأصبح لها كامل الصلاحيات في توقيع الاتفاقيات، وإبرام المعاهدات مع الدول الأوروبية دون اللجوء إلى الباب العالي (الأستانة).

- وما يهمنا نحن هنا، هو الفترة الممتدة من 1805 إلى 1830 (العقد الأخير من الحكم العثماني)، وقد تميزت هذه الفترة بالضعف الذي مهد لظهور الأطماع الفرنسية بالجزائر، مع عدم إستقرار جهاز الحكم، فخلال هذه الفترة تعاقب على الحكم سبعة دايات وهم على التوالي: الداي أحمد باشا 1805-1808، الداي علي باشا الغسال 1808-1809، الحاج علي باشا 1809-1815، الداي محمد باشا 1815، الداي عمر باشا 1815- 1817، الداي علي خوجة باشا 1817-1818، الداي حسين باشا 1818-1830. وفي هذا الشأن، يقول حمدان خوجة في كتابه المرآة:" لقد كانت المناصب تباع وتشترى، وهو أمر كان يلائم رجال الحكم الذين كان ظلمهم يتجاوز القانون".

- كما أننا لو تتبعنا فترات حكم الدايات، نلاحظ أنها لم تتعدى بضعة أشهر لدى الكثير منهم، وهذا راجع إلى بروز ظاهرة الاغتيالات، وكان أول ضحاياهم حسب قول حمدان خوجة الداي مصطفى باشا.

- فساد السياسة العسكرية عامة وسياسة التجنيذ خاصة، وذلك بعدما زال العمل بالمعايير العثمانية القديمة، ففي هذا الشأن يقول حمدان خوجة: "بدلا من أن يتبع المنذوبون -المكلفون بجمع الأجناد- الطريقة القديمة التي لم تكن تسمح بأن يجند في الميليشيا إلا الرجال النزهاء، فإنهم كانوا يفتحون أبواب الميليشيا لأي كان".

- تحول النظام العثماني في الجزائر إلى جهاز لجمع الضرائب من السكان بسبب تدهور الوضع الاقتصادي بعد تراجع مداخيل القرصنة، وهذه السياسة الجديدة المنتهجة من قبل الحكام أثرت على الأهالي ورجال الزوايا والطرق الصوفية (كانوا يمثلون وساطة بين الأهالي والسلطة العثمانية)، وهو ما نتج عنه ظهور ثورات في مطلع القرن التاسع عشر كرد فعل على سياسة الحكام، ومن أمثلتها ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق.

ثانيا- دوافع وأسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر: من أهم الأسباب التي كانت وراء احتلال فرنسا للجزائر، أذكر:

1- سياسيا:

- انحسار المستعمرات الفرنسية في العديد من مناطق العالم بعد أن طردت من الهند وكندا، كما أن الهزائم المتلاحقة التي منيت بها في أوروبا، جعلت من الضروري لفرنسا أن تتطلع لاحتلال بلاد أضعف منها قوة، وذلك لاستعادة هيبتها المفقودة.

- رغبة الوزارة الفرنسية في احتلال الجزائر بغية اتخاذها قاعدة للسيطرة على ما أمكن من دول القارة السوداء، واستغلال خيراتها الطبيعية الكثيرة.

2- اقتصاديا:

- كانت فرنسا تهدف من وراء احتلالها للجزائر الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعتها.

- كانت فرنسا تعاني من ضائقة اقتصادية عقب الثورة الفرنسية، ولذلك طلبت العون من الجزائر في شكل حبوب تشتريها بأثمان مؤجلة.
- أرادت فرنسا الحد من نشاط القرصنة الجزائرية في مياه البحر الأبيض المتوسط، والسيطرة على سفنهم التجارية وحمولاتها.

3- عسكريا:

- إن انهزام الجيش الفرنسي في أوروبا وفشله في احتلال مصر، والانسحاب منها تحت ضربات القوات الانجليزية سنة 1801، دفع بنابليون بونابرت أن يبعث بأحد ضباطه إلى الجزائر (سنة 1808) لكي يضع له خطة عسكرية تسمح له بإقامة محميات فرنسية في شمال إفريقيا، وفي عام 1809 قام هذا الضابط العسكري (بوتان) بتسليم المخطط العسكري لاحتلال الجزائر إلى نابليون، وبعد انهزام نابليون في معركة واترلوا سنة 1815، وتحالف الدول الكبرى ضد الجيش الفرنسي، شعر ملك فرنسا أنه من الأفضل أن يعتمد على سياسة التوسع في إفريقيا.

4- دينيا:

- من بين الأسباب الدينية التي دعت فرنسا إلى الاحتلال دعواها بإنقاذ المسيحية والمسحيين من أيدي القراصنة الجزائريين، إذ أن فرنسا كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية، وترى باحتلال الجزائر عملا هاما أسدت به إلى العالم المسيحي خدمة كبيرة.

بالإضافة إلى كل ما سبق ذكره، تعتبر حادثة المروحة دافعا من دوافع الاحتلال، فماذا نقصد بهذه الحادثة؟

- حادثة المروحة: لقد جرت العادة أن تقوم قناصل الدول الأوروبية المعتمدين لدى الجزائر بزيارة إكرام إلى الداي بمناسبة اليوم الأول من البيرم (عيد الفطر)، وكان القنصل الانجليزي والقنصل الفرنسي يتنافسان الصدارة في هذه المناسبات، ولذلك ولتجنب أي منافسة بينهما قرر الداي أن يستقبل واحدا عشية العيد، والآخر في يوم العيد نفسه، ولهذا جاء القنصل الفرنسي دوفال عشية العيد ليؤدي زيارته للداي بحضور جميع أعضاء الديوان، وقد كان القنصل الفرنسي دوفال يجيد الحديث باللغة التركية، ودار حديث بين الطرفين، فسأله الداي حسين عن السبب في عدم رد ملك فرنسا على رسائله التي طلب منه فيها بتسديد الديون الباقية في ذمة فرنسا، فكان رد القنصل دوفال جافا غليظا، ورد عليه باللغة التركية:"ليس من العادة أن يخاطب الملك من هو أدنى منه، ثم تلفظ بكلام يمس شرف الداي، وهذه الكلمات وأمام أعضاء ديوانه مست كرامته إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بالمروحة، ودوفال لم يفوت هذه الفرصة، حيث أرسل تقريرا إلى حكومته ليطلعها على الإهانة التي تعرض إليها من طرف الداي حسين، وكان رد فرنسا على ذلك إرسال قطعة من أسطولها أمام الجزائر بقيادة القبطان كولي يوم 12 جوان 1827، وطلب من الداي أن يأتي شخصيا إلى السفينة ويعتذر للقنصل دوفال، لكن الداي رفض، وفي 14 جوان 1827 تقدم كولي برسالة إلى الداي حسين، تضمنت مايلي:

- أن يذهب الداي حسين بنفسه إلى مقر القنصلية الفرنسية، ويقدم اعتذارا رسميا للقنصل دوفال.
- أن يرسل وفدا رسميا برئاسة وزير بحريته إلى السفينة الملكية ليقدم الاعتذار.
- أن يرفرف العلم الفرنسي على كل الحصون في مدينة الجزائر، وتطلق مئة طلقة مدفعية لتحيته.

وقد حدد أجل قبول الترضية ب 24 ساعة، فإذا رفض الامتثال لذلك يبدأ الهجوم الفرنسي على الجزائر، وكان من الطبيعي أن يكون رد الداي بالرفض، لهذا قررت فرنسا قطع علاقاتها مع الجزائر، وضربت حصارا بحريا عليها دام لمدة ثلاث سنوات، ومنذ بداية الحصار تحمس القنصل

دوفال لاحتلال الجزائر، لكن السلطات العليا في البحرية لم تسانده الرأي ورأت في ذلك مخاطرة، لكن الخسائر التي تكبدتها فرنسا خلال الحصار دفع بها لإعداد العدة للاحتلال منذ شهر جوان 1830، فألفت ثلاث لجان للإعداد للحملة الفرنسية، والتي قررت أن يكون الإنزال بسيدي فرج، كما أصدر الملك شارل العاشر مرسوما ملكيا عين بموجبه "دي بورمون" قائدا عاما للجيش الفرنسي مكلف باحتلال الجزائر.

ثالثا- سير الحملة الفرنسية على الجزائر:

يتكون جيش الحملة من 37.000 جندي، من بينها 30 ألف من المشاة، مقسمون على ثلاث فرق: هيئة المدفعية، وحدة الهندسة، وفيلق الخيالة، وينتقل الجيش من ميناء طولون على متن 675 سفينة حربية وتجارية، منها 103 سفينة حربية وعدد كبير من السفن المستأجرة لحمل الجنوذ، هذا من جهة الجيش الفرنسي.

أما من جهة الجيش الجزائري، وبالرغم من ضعف تحضيراتهم 6000 مقاتل، هذا بالإضافة إلى المساعدات التي تلقها الداي من باي قسنطينة، وباي وهران، ومن أهل بلاد القبائل... وغيرهم، وكان على رأس هذه القوات ابراهيم آغا صهر الداي حسين.

كانت أول مواجهة عسكرية بين الجيشين الجزائري والفرنسي هي معركة سطاوالي، هذه الأخيرة بدأت أحداثها في 18- 19 جوان 1830، وكانت الغلبة فيها في اليوم الأول لصالح الجيش الجزائري (اعتمد حركة الكر والفر)، وكاد أن يرمي بالجيش الفرنسي في البحر، لولا وجود فرقة عسكرية فرنسية صغيرة بقيت وراء الصفوف، وخافت أن يقضى عليها، فصعدت ربوة وأخذت تستغيث وتشير إلى معظم الجيش، فظن أحد قادة الجيش الجزائري أن الفرنسيون قد عملوا حركة إلتفاف قصد قصف خط الرجعة عنهم، فاغتنمت القيادة الفرنسية فرصة الاضطراب الذي وقع في صفوف الجزائريين، وهذا ما أدى إلى انهزام القوات الجزائرية، وعلى إثر هذه الهزيمة فرّ ابراهيم آغا من الميدان، وترك خلفه الجيش بدون قائد، وبالتالي يمكن القول بأنه من بين أسباب انهزام الجيش الجزائري في معركة سطاوالي:

- عدم استماع ابراهيم آغا إلى رأي أحمد باي قسنطينة (بتجنب المواجهة مع الجيش الفرنسي)، وتشكيل مقاتلين جزائريين في مجموعات، وتوزيعها على طول الطريق بين سيدي فرج والجزائر.
- ضعف ابراهيم آغا في جانب التكتيك العسكري على خلاف سابقه يحي آغا.
- وأيضا انسحاب ابراهيم آغا من الميدان كما سبق وذكرنا.

وبعد هزيمة سطاوالي، استولى الجيش الفرنسي على برج مولاي حسن (خط دفاعي أول)، وهو ما دفع بالداي حسين إلى التشاور مع أعيان المدينة، ورجال القانون والدين في مواصلة المقاومة أو الاستسلام، لكن في النهاية وقف على أمر محتوم وهو الاستسلام والتفاوض مع القائد العام للجيش الفرنسي دي بورمون يوم 4 جويلية 1830، وفي 5 جويلية 1830 تمت معاهدة الاستسلام وفق الشروط الآتية:

- تسليم قلاع المدينة وحصونها للفرنسيين.
- تعهد القائد الفرنسي العام بترك الأموال الخاصة بالداي حسين.
- للداي حرية مطلقة في الرحيل مع أسرته وأمواله إلى أي جهة يختارها، وفي حالة بقائه في الجزائر سيكون تحت حماية القائد الفرنسي العام.
- يتمتع الجنود الأتراك بنفس الحقوق والحماية الممنوحة للداي حسين.
- تتعهد فرنسا باحترام أملاك الأهالي ومعتقداتهم وتقاليدهم.

وافق الداي على هذه الشروط، وغادر الجزائر في 10 جويلية إلى نابولي بإيطاليا، ثم إلى فرنسا، وأخيرا توجه إلى الإسكندرية أين قضى بقية حياته إلى أن وافته المنية، وغادر الجنود الأتراك إلى آسيا الصغرى(الأناضول) يوم 11 جويلية 1830.